

الفطرة (معانيها ومكملاتها ومفسداًتها) ”دراسة موضوعية في القرآن الكريم“

✍ د. إبراهيم بن خالد المخلف (*)

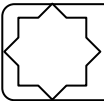
المقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، أرسله ربه على فترة من الرسل ليبين لهم ويردهم إلى دين الله القويم تلك الفطرة التي فطر الناس عليها إذ لا تبديل لدين الله فجراه الله خير ما جزى نبي عن قومه ورسولاً عن أمته

وبعد

فإن من تدبر القرآن حق تدبره وتلاه حق تلاوته يتأكد تماماً أن الله قد خلق الخلق على الفطرة ، وأمرهم بتعظيمها ، ووصف الدين بها في سياق حثه وحذر العباد من تغييرها وتبديلها مبيناً أن اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه ، وجعله مستقيماً قيماً لجميع ما احتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم ، كما تلاحظ أن القرآن الكريم يأمر ويرشد ويوجه للأخذ

(*) أستاذ بجامعة الجوف بالمملكة العربية السعودية



د. إبراهيم بن خالد المخلف

بما يحمل الفطرة على الاستقامة ويحذر من الأخذ بما يعرض الفطرة للانحراف وبيتعد بها عن الجادة وذلك في آيات كثيرة وأحاديث جمّة

ولذا اتّجه فكري للخوض في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لأتبين الأمور التي تصون الفطرة وتقوم سبيلها، والأمور التي من شأنها أن تنحرف بالفطرة وتردّها عن جادتها فاخترت هذا الموضوع وسمّته (الفطرة مكملات ومفسداتها ومعانيها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

أهمية الموضوع

تكمن أهمية هذا الموضوع في الآتي

- 1/ تعلق هذا الموضوع بالقرآن الكريم يكسبه أهميته حيث يجول الباحث حول الآيات ليتبين السبيل لكل مكلف حتى يسلك السبيل السليم
- 2/ الآيات القرآنية التي تتحدث عن الدين والفطرة تحتاج للوقوف على معانيها حتى يتبين السالك الطريق الصحيح
- 3/ الحديث في هذا الموضوع حديث عن الحنيفية السمحة

أهداف الموضوع

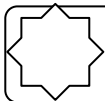
المقصد الأساسي للكتابة في هذا الموضوع هو إبراز الأهداف التالية

- 1 / الإنسان مفطور على الإسلام منذ الأزل
- 2/ بيان الأمور التي تعترض طريق الفطرة الحنيفية وتردها عن سبيلها
- 3/ بيان الأمور التي توقظ الفطرة وتنشطها وتضعها في جادة الطريق

منهج الباحث في دراسة هذا الموضوع

يقوم البحث في هذا الموضوع على المنهج الاستقرائي التحليلي حيث يعمل الباحث

على

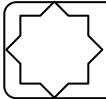


- 1/ جمع الآيات المتعلقة بالموضوع وتقسيمها على مباحث الدراسة حسب ما تقتضيه الضرورة
- 2/ الوقوف على أقوال أهل العلم في تفسير الآيات القرآنية وترجيح الراجح منها حسب الدليل
- 3/ الوقوف على الآثار من السنة وتدعيمها بالآيات المتعلقة بالفطرة وترجيح الراجح منها حسب الدليل
- 4/ عز الأقوال إلى قائلها والمصادر التي أخذت منها، مع الإشارة إليها في الهامش بالحرف (ج) للجزء والحرف (ص) للصفحة وهكذا
- 5/ إثبات الآيات القرآنية وأسماء سورها وأرقامها في صلب الدراسة
- 6/ الترجمة للأعلام غير المشاهير

هيكل البحث

يتألف هذا البحث من

- 1/ مقدمة وتشتمل
أهمية الموضوع وأهدافه ومنهج الباحث في دراسته
- 2/ صلب الموضوع ويتكون من ثلاثة مباحث على النحو التالي
المبحث الأول معاني الفطرة
المبحث الثاني مكمّلات الفطرة
المبحث الثالث مُفسدات الفطرة، وفيه ثلاثة مطالب
المطلب الأول اتباع الشيطان
المطلب الثاني بيئة الكفر
المطلب الثالث قرناء السوء



المبحث الأول

معاني الفطرة

المطلب الأول الفطرة في اللغة

بالنظر في معاجم اللغة العربية^(١) وكتب غريب القرآن والحديث^(٢) نجد أن أصل كلمة "فطرة" هو "فَطَرَ" فالفاء والطاء والراء أصل صحيح

"والفطرة بكسر الفاء وسكون الطاء على وزن فعلة وهي الحالة من "فَطَرَ" كالجلسة والركبة ومعنى هذه الكلمة في اللغة يدور على عدة معان: منها

فطر - بالفتح - أي الشَّقَّ وهو الأصل في المعنى وقيد بعضهم بأنه الشَّقَّ الأوَّل أو

الشَّقَّ طَوَّلاً وجمعه "فَطُور" أي شقوق وشواهد هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة منها

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ [سورة الشورى ٥] وقوله

تعالى: ﴿ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ (سورة الملك ٣) وقوله تعالى: ﴿ السَّمَاءُ

مُنْفَطِرٌ بِهِ ۗ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ (سورة المزمل: 18) وقوله تعالى: ﴿ إِذَا

(١) انظر مادة (فطر) في كتاب العين 417/7 - 418 للخليل بن أحمد الفراهيدي وجمهرة اللغة 370/2 - 371 لابن دريد وتهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهرى 325/13 - 330 ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس 5.10/4 والقاموس المحيط للفيروزآبادي 587 والصاحح للجوهري 781/2 ولسان العرب لابن منظور 55/5 - 59 والمغرب لابن المطرز 143/2 - 144 وتاج العروس للزبيدي 325/13 - 332 والمصباح المنير لابن المقري 476/2 - 477 وغيرها من المعاجم اللغوية

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن للأصبهاني 575 وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي 284/3 والفائق في غريب الحديث للزنجشوي 126/3 - 128 والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير 457/3 ومجمع بحار الأنوار لمحمد الصديقي الكجراني 154/4 - 156 وغريب الحديث لابن الجوزي 199/2 - 200 وغريب الحديث لأبي عبيد 299/3 - 300.

السَّمَاءُ ﴿سورة الانفطار (١) ومن شواهد في الحديث الشريف ما ورد في الحديث

الصحيح أن النبي ﷺ " كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه " (١) أي تُشقق

ومن شواهد الفطر بمعنى الشق في كلام العرب من قول تحية بن جنادة

شقق القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور (2)

وفي الأثر المروي عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - حين قال " ما كنت

أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأت حفرها (١).

وفي قوله تعالى ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ (سورة المزمل ١٨) إشارة إلى معنى آخر من

معان الفطر وهو القبول فقوله " منفطر به " إشارة إلى قبولها ما اقتضاه خلقه وإبداعه لها (١).

وأطلق العرب "الفطر" أيضاً على الشيء الحديث الذي لم يمر على حدوثه زمن حتى يتأثر

أو يتغير بل هو باقٍ على أصله ومنه قولهم "الفطر" - بالوجهين: شيء قليل من اللبن

يحب ساعتئذٍ وقولهم حيس فطير أي طري قريب حديث العمل وفطر العجين اختبزه

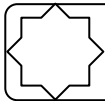
(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ حتى تتورم قدماه 44/2 وفي كتاب التفسير باب قوله ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك 45/6 وفي كتاب الرقاق باب الصبر على محارم الله 183/7 وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العباد 2171/4 - 2172 حديث رقم 2819-2820 .

(2) لسان العرب الجزء 6 303/4 مادة ذرر - دار صادر وقيل هو من قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

(3) أخرجه ابن جرير بسنده في التفسير 158/5 وعزاه السيوطي في تفسيره إلى أبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن

المنذر وابن حاتم والبيهقي في شعب الإيمان أنظر الدر المنثور 3/7 .

(4) أنظر المفردات في غريب القرآن للأصبهاني 575 .



د. إبراهيم بن خالد المخلف

من ساعته ولم يخممه وشر الرأي الفطير أو إياك والرأي الفطير وهو الذي لم يترو فيه صاحبه ولم يحكمه فبقى على حاله من البساطة⁽¹⁾.

المطلب الثاني الفطرة في الاصطلاح

اختلف أهل العلم في معنى الفطرة فقول: هي بمعنى الإقرار بمعرفة الله تعالى، وقيل بمعنى الإسلام والدين والملة⁽²⁾.

وقد اختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال فقيل يولد على الفطرة أي على الإسلام وقيل على الإقرار بمعرفة الله تعالى وهو العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في أصلاب آبائهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: 172) وقيل يولد على الفطرة أي على السلامة من كل اعتقاد فلا يولد على كفر ولا إيمان⁽³⁾.

وظاهر القرآن والسنة أن المقصود بالفطرة اقتضاء الإسلام والميل إليه والرغبة فيه يدل على هذا أن الرسول ﷺ ذكر أن الانحراف عارض للمولود بسبب خارج عنه وأشار إلى أقوى هذه الأسباب وهما الأبوان ولم يقل يُسلمانه لأن الإسلام مستقر في نفسه ويدل على هذا أيضاً حديث عياض المجاشعي⁽⁴⁾ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال "خلقت

(1) الفطرة حقيقتها ومذاهب الناس فيها لعلي بن عبد الله القرني ص 25 ط1 1424 هـ - 2003 م دار المسلم

(2) أنظر شفاء العليل 2/ 775 وما بعدها شمس الدين بن قيم الجوزية مكتبة العبيكان ط1/ 1420 هـ

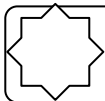
(3) انظر تفصيل ذلك في القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ج 14 ص 25 وما بعدها ابن القيم - شفاء العليل ص

283 وما بعدها مكتبة الرياض الحديثية ط 1 سنة 1323 هـ - البغوي - شرح السنة تحقيق زهير الشاويش وشعيب

الأرناؤوط ج 1 ص 157 المكتب الإسلامي ط1 سنة 1390 هـ.

(4) اض بن حمار التميمي المجاشعي صحابي سكن البصرة وعاش إلى حدود الخمسين انظر الإصابة (48/3) تقريب

التهذيب 437.



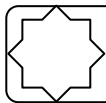
الفطرية (معانيها ومكملاتها ومفسداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً" (□).
قال ابن القيم "دلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلق مفطورون على دين الله الذي هو معرفته والإقرار به ومحبته والخضوع له، وأن ذلك موجب فطرهم ومقتضاها يجب حصوله فيها إن لم يحصل ما يعارضه ويقتضي حصول ضده، وأن حصول ذلك فيها لا يقف على وجود شرط بل على انتفاء المانع فإذا لم يوجد فهو لوجود منافيه لا لعدم مقتضيه ولهذا لم يذكر النبي ﷺ لوجود الفطرة شرطاً بل ذكر ما يمنع موجبها حيث قال: " فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" (□)."

المبحث الثاني مكملات الفطرة

(1) واه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار 2197/4 حديث 2865 .

(2) متفق عليه وقد سبق تخريجه



د. إبراهيم بن خالد المخلف

لقد عظم الإسلام أمر الفطرة وشأنها حيث وصف القرآن الكريم الدين بها وأمر باتباعها وحذر العباد من تغييرها مبيّناً أنّ اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه وجعله مستقيماً قيماً لجميع ما يحتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ الَّذِي يُفِئِدُ الْفَيْئِدَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم ٣٠).

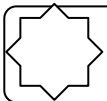
ومن تعظيم الإسلام للفطرة أنه جعلها الأساس السابق لأي دليل شرعي أو عقلي، وجعل لها مكملات منها:

المطلب الأوّل رسالة الرسل

إن إرسال الرسل وإنزال الكتب لهو من أهم الأسباب لسلامة الفطرة وإيقاظها وتكميلها لأن الفطرة مركز في معرفة الله ومحبته والإخلاص له والإقرار بشرعه وإيثاره على غيره فهي تعرف ذلك وتشعر به مجملًا ومفصلاً بعض التفصيل فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه وتفصله لها وتبينه وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتنائها أثرها وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل فإنها أمر بمعروف ونهي عن منكر وإباحة طيب وتحريم خبيث وأمر بعدل ونهي عن ظلم وهذا كله مركز في الفطرة وكمال تفصيله وتبينه موقوف على الرسل" (□).

فرسالة الرسل - عليهم السلام - وشرائعهم مكملة للفطرة ومذكورة بها وهذا ما بينه القرآن الكريم في عدة مواضع منها

(١) شفاء العليل لابن القيم 513 .



الفطرة (معانيها ومكملاتها ومفسداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (سورة الغاشية ٢١). وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (سورة ق: ٣٧). وغيرها من الآيات

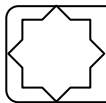
فهذه الآيات التي جاءت تبين أن الرسول ﷺ مذكر والقرآن تذكرة والدين ذكرى فإن أكثر الناس غافلون عما فطروا عليه من العلم فيذكرون بالعلم الذي فطروا عليه. ولهذا توصف الرسل بأنهم يذكرون ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصرة ويؤمر الناس تارة بالتذكرة وتارة بالتبصرة ثم يؤمر الناس أن يقرأوا بما عملوه ويشهدوا به فلا يعاندونه ولا يحدونه وأكثر الكفار جحدوا ما علموه" (□).

فالرسل - عليهم السلام - بعثوا - كما دلت الآيات السابقة - للتذكير وليس لإنشاء المعرفة بالله تعالى في قلوب الناس بعد أن لم تكن والدليل على ذلك أنه ليس في الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من كلف قومه أولاً بالمعرفة أو بالأدلة الموصلة إليها فقال انظروا واستدلوا حتى تعرفوه إذ كانت قلوبهم مغطوة على معرفته والإقرار به ولكن عرض لها ما غيرها وبديلها فأرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب للتذكير بتلك الفطرة وما هو معلوم لها وتقويته وإمداده ونفي المغير له لكي يحصل الكمال إذ الكمال يحصل بالفطرة المكتملة بالشرعة المنزلة (□).

وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (سورة الأنعام ٤٤) في هذه الآية شاهدان الأول

(١) جامع الرسائل ابن تيمية 16/1.

(٢) أنظر مجموع الفتاوى لابن تيمية 338/16 و348.



د. إبراهيم بن خالد المخلف

التذكرة والثاني النسيان فقوله ذكر"وا دليل على أنهم كانوا يمتلكون سابق معرفة وكذلك

قوله "نسوا دليل آخر على أنه كان لديهم معرفة سابقة وهي الفطرة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها

وتقويته وإمداده ونفي المغير للفطرة فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة

وتحويلها والكمال يحصل بالفطرة المكتملة بالشرعة المنزلة " (□)

الفطرة الصحيحة أيضاً

ولأن رسالة الرسول ﷺ عامة لكافة البشر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا

وَنَذِيرًا ﴾ (سورة نساء ٢٨) فإن آيات الذكرى والتذكرة - السابقة - تدل على أن القرآن

تذكرة لكافة البشر سواء كانوا مؤمنين أو من أهل الكتاب أو ملحدين مما يكشف عن أن كل

الناس في الأعصار الماضية والحالية والمستقبلية لهم معرفة فطرية بالأسس العامة للإسلام

المتكررة في جميع الأديان السماوية وإلا فلن تصدق كلمة التذكرة على القرآن الكريم إذن

فالتذكرة شاملة ومع أن طائفة خاصة هي المستفيدة منها : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الذاريات ٥٥) (□).

المطلب الثاني الوالدان

تؤثر البيئة الأسرية (الوالدين) في الإنسان ويتسبب في تغيير سلوكه الذي وجد عليه

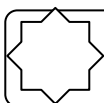
سواءً كان هذا المغير سبباً مادياً أو بشرياً أو معنوياً فهي تشمل المكان والإنسان والأفكار

والعادات (□).

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية 348/16 .

(٢) العقيدة من خلال الفطرة آية الله جوادى 17 .

(٣) انظر دوافع إنكار الحقي الملاحني 60



الفطرة (معانيها ومكملاتها ومفسداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

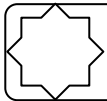
والإنسان كائن اجتماعي بطبعه لا يمكن أن يعيش حياته منعزلاً أو يستطيع أن يحقق حاجاته أو إشباع رغباته المادية والمعنوية بعيداً عن الآخرين^(١)، وقد أشار الله إلى هذا الأمر في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (سورة الحجرات ١٣) قال ﷺ "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"^(٢).

وحذر الله تعالى من طاعة الوالدين فيما يفسد الفطرة فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة لقمان ١٥).
فالأسرة (الوالدين) هي اللبنة التي يبدأ منها التأثير على الطفل كما نص على ذلك الحديث السابق فمنها يبدأ التعليم والتأديب والتأثير ولأجل ذلك أولى الإسلام الأسرة أهمية كبرى حيث حض الإسلام على اختيار الزوجة ذات الدين والحُلُق لما لذلك من أهمية في حفظ أولادها، وتشبثهم النشأة الصالحة قال ﷺ (تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)^(٣).

(١) أنظر مجلة الأمن العام الفطرة الإنسانية للجنة 196.

(٢) سبق تخريجه

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري مع الفتح كتاب النكاح باب الإكفاء في الدين 35/9 حديث 5090 مسلم في صحيحه كتاب الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين 1086/2 حديث رقم 1466.



د. إبراهيم بن خالد المخلف

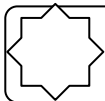
لقد عظم الإسلام أمر تربية الأولاد وحسن تأديبهم ومن الأحاديث الدالة على ذلك قوله ﷺ (لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع)^(١) ، وقوله - عليه الصلاة والسلام " ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن " .^(٢) وحث على تعليمهم الصلاة ومن الأحاديث في الأمر بالصلاة قوله ﷺ " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر " .^(٣) الحديث وغيرها من العبادات والأخلاق الحسنة

وقد حث الإسلام كل فرد في الأسرة على أداء مسؤوليته قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (سورة التحريم ٦) وقال ﷺ : " كلكم راع ومسؤول. عن رعيته " .^(٤) الحديث

المطلب الثالث إدامة الفكر

إنّ التفكير والتأمل في آيات الله تعالى ومخلوقاته والآله الدالة على عظمته وقدرته ووحدانيته وربوبيته من أنفع الأسباب المؤثرة في الفطرة وقد استخدم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - هذا السبب لتحريك فطر الناس وإيقاظها من غفلتها فدعوا أقوامهم إلى تأمل أنفسهم وتأمل الكون من حولهم ومن الآيات التي أشارت إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ... أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾^(٥) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٦)

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم 20938 . 21007 والترمذي في سننه كتاب البر والصلة باب ما جاء في أدب الولد 337/4 وقال عنه حديث غريب والطبراني في الكبير برقم 2032 والحاكم في المستدرک كتاب التوبة والإنابة 292/4 .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم 15439 و 16756 و 16763 .
(٣) رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة باب متى يؤمر الغلام بالصلاة 133/1 .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن 304/1 ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب فضل الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم 1459/3 .
حديث رقم 1829 .



الطبيعة (معانيها ومكملاتها ومفرداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَاللَّعْنَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ... [الآيات إلى قوله تعالى:] أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ (سورة التّحذيل ٢-١٧) ففي هذه الآيات الجمع بين الدّعوة والاستدلال بالآفاق والأنفس وكل ذلك بتفصيل عجيب

ومن الآيات الشّاهدة على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الدّاريات ٢١) وقوله سبحانه : ﴿ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَمَكِ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ (سورة الانفطار ٦-٨). وقوله تعالى: ﴿ فَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ﴿٥﴾ (سورة الطّارق ٥).

وقد اعترف بعض العلماء الغربيين بوجود الخالق - سبحانه وتعالى - وذلك نتيجة لتأملهم ودراستهم لقوانين الكون وأسرار الطبيعة التي أودعها الله في هذا الكون ومن أقوالهم في ذلك : " إن هذا العالم الذي نعيش فيه قد ابلغ من الإتقان والتّعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة إنه ملئ بالروائع والأمر التي تحتاج إلى مُدبر والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقّدة وهي بذلك تزيد معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده." [١] وهكذا أثر النّظر في هذا الكون في إيقاظ فطرة هؤلاء العلماء حتى اعترفوا بوجود الخالق - سبحانه وتعالى - وسيوضح هذا المعنى جلياً في الآتي

أ) التّفكر في خلق الإنسان

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد ملكاوي طبعة مكتبة الرشد بالرياض الطبعة الأولى

د. إبراهيم بن خالد المخلف

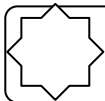
إنّ القرآن الكريم - وهو المصدر الأوّل من مصادر التشريع الإسلامي - قد تناول قصة خلق الإنسان، ابتداءً من خلق أصل البشرية آدم عليه السلام، وهو أوّل البشر على الإطلاق، مروراً بمن خُلِقَ بعده من البشر، وصولاً إلى محمد عليه الصلاة والسلام وأُمَّته الكريمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،

ومن هنا يرى بعضُ الفقهاء، أنّ الإنسان ليس أفضلَ من كل الموجودات فقط، بل هو أفضل من الملائكة أيضاً أو من هو أفضل منهم في هذه الدار إذ هو متميز عنهم في الخلق والأمر والنهي، الملائكة يطيعون آدم ويخضعون له (□).

لقد استخلف الله الإنسان في الأرض، وحتى يتحقق له هذا الاستخلاف فلا بُدَّ له من أن يُمكنَ من استعمال الوسائل الماديّة التي تحقق له هذا الأمر، فقد سُخِّرَتْ له الموجودات جميعها، وهَيِّئَتْ له الأرض ودُلِّلت لتكونَ طوعَ تصرّفه يزرعها لتنتج له ما يأكل، ويبني عليها بيتَ سكنه، ويسير في شعابها وتلالها لمعايشه ومباشرة أعماله، وسُخِّرَ له البَحْرُ يركبه بالفلك والسفن والقوارب، ومنه يأكل طعامه، كما سُخِّرَتْ النباتات والأنعام له ولمعايشه ولولا تمكينَ الله تعالى للإنسان، واعطاؤه السّيطرة بتسخير كل تلك الموجودات له، لما استطاع العيش في هذه الحياة الدنيا، وبالرغم من كلّ هذه النعم التي منّ الله عليه بها - وهي كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصى - فإنّا نراه قليلاً ما يكون لله المنعم الرازق المتفضل حامداً أو شاكراً، بل كثيراً ما نراه ضالاً شاطراً، كافراً بأنعم الله، جاحداً فضله، (□) متبعاً خطوات الشيطان وجنده من دعاة الماديّة والوثنية والإلحادية والعصبيّة القبليّة والقومية، كافراً بأنعم الله طوراً ومُشركاً به أطواراً، عاصياً أوامره مُستَحِجلاً حرّماته، متمرداً على كل النواميس والسُّنن التي سنّها لهم الخالق المنعم. المدبر

(1) النهاتي تقي الدين، التفكير، صفحة 6

(2) موسوعة الخلق والنشوء، حاتم ناصر الشرباتي، 1424هـ 2002م مكتبة الإيمان - المنصورة.



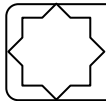
الظلمة (معانيها ومكملاتها ومفرداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

قال ابن كثير " وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، وهذا الذي قرناه هو اختيار "ابن جرير أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام وقال سفيان الثوري عن الأعمش بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس "ولقد خلقناكم ثم صورناكم قال خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم (الذرية). (□) .

جاء في الظلال (□) لسيد قطب "إن الخلق قد يكون معناه الإنشاء والتصوير، وقد يكون معناه إعطاء الصورة والخصائص وهما مرتبتان في النشأة. لا مرحلتان فإن "ثم قد لا تكون للترتيب الزمني ولكن للترقي المعنوي، والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود فالوجود يكون للمادة الخامة، ولكن التصوير- بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص- يكون درجة أعلى من من درجات الوجود فكأنه قال إننا نمحك مجرد الوجود، ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية، وذلك كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (سورة طه ٥٠) وعلى أية حال فإن مجموع التصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة كان مصاحباً لخلقه وأن الترتيب في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز الخصائص ونموها وتوزيعها واكتسابها الخبرة العالية، ولكن لم يكن ترقياً في وجود الإنسان من تطور حتى انتهت إلى الإنسانية كما تقول الداروينية

(١) تفسير ابن كثير ج2 صفحة 202 - 203

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، صفحة 1264 - 1265



د. إبراهيم بن خالد المخلف

قال الأستاذ عبد الوهاب التّجار " خلقنا أصلكم الذي نسلكم وكنتم من أبنائه ، فخلقنا له خلقاً لكم (□) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٣١) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ

مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ﴾ (٣٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤١﴾ (سورة الحجر ٢٦ - ٣١) .

الصَّلْصَال هو المنتن من الطّين الحمأ هو الطّين الأسود المنتن المسنون هو المتغيّر وجاء في "لسان العرب" الصلصال من الطين ما لم يجعل خزفاً، وكل ما جفّ من طين أو فخار والمسنون هو المصوّر وهو المتغيّر المنتن . والحمأ هو الطين الأسود المنتن من حمأ مسنون أي متغير منتن (□) .

أما أبو بكر الرّازي فيقول (الصَّلْصَال هو الطّين الحرّ خُلِطَ بِالرَّمْلِ فَصَارَ يَتَصَلَّصُ إِذَا جَفَّ، فَإِذَا طَبَخَ بِالنَّارِ فَهُوَ الْفَخَارُ، وَالْحَمَأُ هُوَ الطّينُ الْأَسْوَدُ، وَالْحَمَأُ الْمَسْنُونُ هُوَ الْمُتَغَيَّرُ الْمُنْتَنُ (□) قال الدكتور محمّد البهيّ " الصَّلْصَال هو الطّين اليابس الذي له رنين وصوت، والحمأ هو الطّين الأسود المتغيّر، والمسنون هو المصوّر والمصبوب، أي صورنا هيكلا هذا المخلوق المعهود من طين يابس طال اختلاطه بالماء حتى تغيّر واسود لونه " (□) .

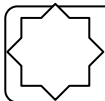
" الحمد لله ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (سورة الفرقان ٥٤) ، والقائل عزّ من قائل : ﴿ يَتَأَيَّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا

(١) عبد الوهاب التّجار، قصص الأنبياء ، صفحة 2

(٢) ابن منظور ، لسان العرب، ج 11 ، صفحة 382

(٣) الرّازي أبو بكر، تفسير الصحاح، صفحة 153 و 368

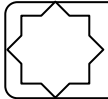
(٤) د محمد البهيّ، تفسير سورة الحجر، صفحة 19



الخطبة (معانيها ومكملاتها ومفرداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

وَقَبَائِلَ لَتَعَارَفُوا ﴿١٣﴾ (سورة الحجرات ١٣) والقائل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۗ﴾ (سورة النساء ١) وجعل ارتباط الذكر والأنثى وسيلة إلى استبقاء النوع الإنساني وحفظه على الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وجعل مجال الالتقاء بطريق محدد مشروع هو النكاح ثم جعل ثمرة ذلك النكاح الولد والنسل الذي حُبِّبَ فيه ورغب إليه وجعل حبه مركزاً في فطرة الإنسان كما جعل ميل الرجل للمرأة وميل المرأة للرجل غريزة وفطرة . . . ثم جعل الآيات العجيبة في خلق الإنسان وأطواره التي يمر بها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام كيف ينشؤها ويرفع بنيانها إلى اللحم يكسوها خلقاً بعد خلق في ظلمات ثلاث

وأمرنا سبحانه بالتفكير والنظر في خلق الإنسان فقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ (سورة الطارق 5-7) وجعل ذلك النظر أحد الأدلة الباهرة على إعادة خلقه والبعث والشور فقال عز وجل تكملة لشريط الخلق: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ (سورة الطارق 8-9) . واستعرض سبحانه وتعالى مراحل خلق الإنسان في شريط متكامل يبدأ من مرحلة الطين وينتهي بالموت ثم البعث والنشور في أكثر من موضع وأكثر من سورة فقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ ۗ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۗ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۗ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

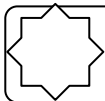


د. إبراهيم بن خالد المخلف

وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ (سورة الحج ٥ - ٦) ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿٤﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة المؤمنون ١٢ - ١٦). وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيََتَّكُونُوا شُيُوخًا ﴿٤﴾ وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ ٥ وَلَيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَعَلَّامَةٌ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ٥ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ (سورة غافر ٦٧ - ٦٨) .

فسبحان من شملت قدرته كل مقدور وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور يخلق ما يشاء ، قال تعالى : ﴿ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ٤ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة الشورى ٤٩ - ٥٠) .
وسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى وجعل الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى . ثم صورها بعد ذلك في الأرحام تصويراً ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ٤ ﴾ (سورة آل عمران ٦) .

إنّ الأحاديث النبوية الشريفة التي شرحت هذه الآيات وأضافت إليها بعداً جديداً كانت كذلك في غاية الوضوح إلاّ ما جاء منها حول تحديد موعد التخليق فقد بدا فيها تعارض ظاهري في أول الأمر مثل الحديث " إذا مر بالنطفة اثنان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً



الطاهرة (معانيها ومكملاتها ومفرداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها⁽¹⁾. وحديث ابن مسعود⁽²⁾ إنَّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح⁽³⁾.

والحكمة في خلق الإنسان من الذكر والأنثى خفية على الناس ولو تمنعوا فيها لسجدوا لله شكراً على هذه النعمة وكَمَّ من نعم تغمرنا آناء الليل وأطراف النهار ونحن عنها غافلون سادرون بل متجبرون كافرون

ولو خلق الإنسان من خلية واحدة تنقسم كما تنقسم الأمييا والبكتيريا⁽⁴⁾ لأصبح ملايين البشر نسخة مملّة مكررة ولكن الله ربط التناسل بالذكر والأنثى بحيث ينفرد كل إنسان عن غيره حتى ولو كانا توأمين فالخلايا تحمل في طياتها جسيمات ملوّنة (الصبغات أو الكروموسومات) وهذه الأخيرة تحمل خصائص البشرية وخصائص الوراثة وهكذا تتنوع البشر ويختلفون ويصبح كل فرد منهم مميزاً عن الآخرين وإن ارتبط بهم برباط النسب ولحمة الدّم فالأصل واحد والناس لآدم وآدم من تراب ولكن شتان بين معادن الخير ومعادن الشرّ وشتان بين نوح وابنه وبين إبراهيم وأبيه وبين لوط وزوجته ونوح وامراته وفرعون الجبار وآسيا المؤمنة الطاهرة التقيّة⁽⁵⁾.

ب) التّفكر في خلق السّمّاءات والأرض

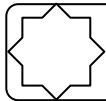
(1) أخرجه مسلم في كتابه القدر باب كيفية الخلق الآدمي 2037/4 حديث 2645

(2) متفق عليه صحيح البخاري مع الفتح كتاب التوحيد باب قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) 449/13

حديث 7453 ومسلم كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمي 2036/4 حديث 2645.

(3) الأمييا والبكتيريا كائنات حية دقيقة لا ترى إلا بالمجهر.

(4) خلق الإنسان بين الطب والقرآن. د محمد علي البار ص 5 وما بعدها



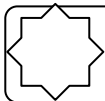
د. إبراهيم بن خالد المخلف

يشير القرآن الكريم في عدد من آياته إلى الكون وإلى العديد من مكوناته السموات والأرض وما بكل منهما من الأحياء والجمادات والظواهر الكونية المختلفة وتأتي هذه الآيات في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة التي أبدعت هذا الكون بجميع ما فيه ومن فيه وفي مقام الاستدلال كذلك على أن الإله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته قادر على فنائه وقادر على إعادة خلقه من جديد وذلك في معرض حاجة للكافرين والمشركين والمشككين وفي إثبات الألوهية والوحدانية لرب العالمين بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد^(١).

وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَنَقَّْنَهُمَا ط وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ (سورة الأنبياء ٣٠) هذه الآية الكريمة واضحة الدلالة على أن الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية بدأ الله تعالى خلقه من جرم ابتدائي واحد (مرحلة الرتق) وهو القادر على كل شيء ثم أمر الله تعالى بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق (مرحلة الفتق) وتحول إلى سحابة من الدخان (مرحلة الدخان) وخلق الله تعالى من هذا الدخان كلاً من السماء والأرض وتعرف هذه المرحلة باسم (مرحلة الإتيان بكل من السماء والأرض) وقد جاء وصف المرحلتين الأخيرتين في الآية الحادية عشرة من سورة فصلت والتي يقول فيها ربنا سبحانه وتعالى وموحناً كل من الذين كفروا بالله تعالى فأنكروا الخلق أو أشركوا مع الله تعالى معبوداً آخر: ﴿فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿سورة فصلت 12﴾.

قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

(١) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن - السماء - د زغول النجار - ص 75/ 78



الخطبة (معانيها ومكملاتها ومفرداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ (سورة آل عمران ١٩٠ -
١٩١).

وكان لنزول هاتين الآيتين وما تلاهما من آيات في السّورة نفسها وقع شديد على رسول
الله ﷺ - الذي يروى عنه أنه قال عقب الوحي بها (ويل لمن قرأ هذه الآيات ولم
يتفكر فيها) (١). وواضح الأمر في ذلك أن التفكير في خلق السموات والأرض فريضة إسلامية
لا بد من قيام نفر من المسلمين بها لأنها عبادة من أجل وأعظم العبادات لله الخالق ووسيلة
من أعظم الوسائل للتعرف على كل من حقيقة الخلق وحتمية الإفناء وضرورة البعث
والتأكد على عظمة الخالق (٢).

لقد جاءت مادة خلق بمشتقاتها في القرآن الكريم مائتين وإحدى وستين (261) مرة
لتأكيد أن عملية الخلق هي عملية خاصة بالله تعالى وحده لا يشاركه فيها أحد ولا ينازعه
عليها منازع ولا يقدر عليها غيره سبحانه وتعالى إلى يادنه
كذلك وردت لفظة السّمَاء في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة
(310) مواضع منها مائة وعشرون (120) بصيغة الإفراد السّمَاء " ومائة وتسعون
(190) بصيغة الجمع (السّموات معرفة وغير معرفة قال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَذَلَمُونَ ﴾ (سورة الكهف ٥١) وفي
الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (سورة الذاريات ٤٧).
أي بقوة وحكمة وإقتدار تلميحاً إلى ضخامة الكون المذهلة وإحكام صنعه وإنضباط حركاته

(١) ذكره السيوطي في تفسير الدر المنثور (111/2) والزيدي في إتحاف السادة المتقين (119/9) والمنداري في الترغيب
والترهيب 316/2 وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم 1468 .
(٢) آيات الإعجاز العلمي في السماء. د زغلول النجار مصدر سابق .

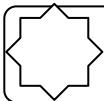
د. إبراهيم بن خالد المخلف

ودقة كل أمر فيه من أموره ثبات سننه وتماسك أجزائه وحفظه من التصدع أو الانهيار فالسّماء لغة هي كلّ ما علاك فأظلك ومضموناً هي كل ما حول الأرض من أجرام ومادة وطاقة السّماء التي لا يدرك العلم الكسبي إلا جزءاً يسيراً منها

كما تشير الآية ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (سورة الذاريات ٤٧) إلى أن الكون الشاسع الاتّساع الدقيق البناء المحكم الحركة والمنضبط في كل أموره والثابت في سننه وقوانينه قد خلقه الله تعالى بعلمه وحكمته وقدرته وهو سبحانه الذي يحفظه من الزوال والانهيار (وهو القادر على كل شيء)

وإذا كان صدق القرآن الكريم جلياً في إشارته إلى بعض أشياء الكون وظواهره (السّماء) فلا بد أن يكون صدقه في رسالته الأساسية (وهي الدين بركائزه الأربع العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات) جلياً كذلك وهنا يتضح جانب من أهمّ جوانب الإعجاز في كتاب الله - وما أكثر جوانبه المعجزة - ألا وهو الإعجاز العلمي وهو خطاب العصر ومنطقه وما أحوج الأمة الإسلامية بل ما أحوج الإنسانية كلها إلى هذا الخطاب في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه وزمن العولمة الذي تحاول فيه القوى الكبرى - على ضلالها - فرض قيمها الدينية والأخلاقية والاجتماعية المنهارة على دول العالم الثالث (وفي زمرتها الدول الإسلامية) بحكم غلبتها العلمية والتقنية وهيمنتها الاقتصادية والعسكرية وقد عانت الدول الغربية ذاتها - ولا تزال - من الإغراق المادي الذي دمر مجتمعاتها وإلى الحيود عن كلّ قوانين الفطرة السّوية التي فطر الله سبحانه وتعالى خلقه عليها (١).

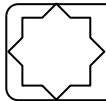
(١) آيات الإعجاز العلمي في السماء مصدر سابق ص 77 .



وما أوحى علماء المسلمين إلى إدراك قيمة الآيات الكونية في كتاب الله فيقبلوا عليها بالتحقيق العلمي المنهجي الدقيق بعد فهم عميق لدلالة اللغة وضوابطها وقواعدها ولأساليب التعبير فيها وفهم لأسباب النزول ومعرفة بالمأثور في تفسير الرسول ﷺ .

حثنا القرآن الكريم إلى النظر بالبصر والبصيرة في الأرض والتأمل في آيات الله فهي ، التي تهدي الناظرين والمتفكرين والمعتبرين إلى أن ما فيها من صفات وخصائص ، وخلق متقن وحكيم ، يدل حتماً على أن له خالقاً عليمًا حكيمًا قوياً قادراً مهيمناً ، يصرفه كيف يشاء ، وقد تكررت كثيراً من الآيات التي ترشد إلى النظر إلى الأرض والتفكر فيها بطرق وأساليب مختلفة ، كلها تؤكد إثبات وجود الله والإيمان به جل جلاله وتنبه على آثار صفاته العلى التي يشاهد الإنسان أثرها أمام عينيه في خلق الأرض وإحكامها وتقديرها وهذا إرشاد خاص من الإرشاد العام للقرآن الذي أرشد إلى النظر والتفكر في الكون بكامله ثم يخصص القرآن من هذا الكون ، الأرض والإنسان والنبات والشمس والقمر وغيرها من المخلوقات التي لفت القرآن النظر إليها ودراستها لمعرفة الآيات الدالة على وجود خالقها والمرشدة إلى عظيم صفاته سبحانه وتعالى ومن آيات الله في خلق الأرض وتمهيدها للحياة في ضوء القرآن الكريم امتثالاً لأمر الله تعالى القائل : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة يونس ١٠١).

وإن من آيات الله العظيمة وبراهينه القوية الدالة على كمال الربّ جلاً وعلا هذه الأرض التي نمشي عليها ، ونسير في فجاجها ، كم فيها من البراهين الدالة على كمال الخالق وعظمة الموجد سبحانه وتعالى ، يقول الله جلّ وعلا : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الجاثية ٣) ، ويقول جلّ وعلا : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الدّارجات ٢٠) ، ويقول جلّ وعلا : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

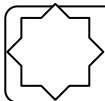


﴿ ١٨ ﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴿ (سورة الغاشية ١٧ - ٢٠) .

ما أعظمها من آية دالة على كمال الخالق جلّ وعلا ، هذه الأرض لم يوجد لها عز وجلّ لعباً وهملاً وباطلاً تنزهه ربنا عن ذلك ، وتقدّس جلّ شأنه - ؛ بل إتهه جلّ وعلا وضعها للأنام وسخرها لهم وأوجد فيها من النعم ما لا يعدّ ولا يحصى لطبيعته الأنام عليها ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاتٍ رَبِّكُمْ تُكَذَّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة الرحمن ١٠ - ١٣) .

لقد تفرّد الله وحده بالخلق والتدبير ، وأودع في مخلوقاته من عجائب صنعه وعظيم فعله ؛ فشهدت له مخلوقاته بالربوبية ، وأقر من نور الله له قلبه بالوحدانية ، وآية من آيات الله يراها الصّغير والكبير ، ويشعر بها الأعمى والأصمّ والسميع والبصير ، يتقلّب الخلق عليها ، ثم يودعون فيها خلقها فأبدعها فحمد نفسه لما فرغ من خلقها ، فقال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الأنعام ١) ، وأقسم بها فقال : ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ﴾ (سورة الشمس ٦) ، وأقسم بأجزاء منها فقال سبحانه : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (سورة التين ٣) .

خلقها على غير مثال لها ، وبنوره استنارت ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة النور ٣٥) ، وأعجز الخلق أن يخلقوا مثلاً : ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ (سورة فاطر ٤٠) ، وهي أكبر من خلق الناس ؛ ولعظم خلقها أقر الكفار بأن خالقها هو الله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (سورة لقمان ٢٥) ، وأمر بالتفكر فيها : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة الأعراف ١٨٥) ، وذم من لم يعتبر بها وبما



الذاريات (معانيها ومكملاتها ومفسداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

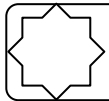
فيها: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (سورة يوسف ١٠٥)، وأخبر أنها مليئة بالعبر والآيات: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الذاريات ٢٠).

هي أصل الإنسان ومنها خُلق: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (سورة نوح ١٧)، خلقها قبل السماء كالأساس للبناء في يومين، ثم خلق السماء في يومين، ثم دحا الأرض في يومين آخرين؛ فأخرج بدحيتها ما كان مُودَعًا فيها، فظهرت العيون، وجرت الأنهار، ونبت الزرع، ورسد الجبال، فأتم الخلق في ستة أيام آخرهن يوم الجمعة؛ فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع

ثم بعد خلقها استوى الرحمن على عرشه وقال للسماء وللأرض بما فيها من جبال ثقال، وبحار زاخرات: ﴿أَفَتَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (سورة فصلت ١١)، خلقها سبع أرضين كل واحدة فوق الأخرى، ومدّها ووسّعها فلم تضيق يوماً على ساكنيها، وسلك فيها سبلاً لا يتيهون فيها، وذلكها خلقه فالإنس والطيور والحيوان يشيرون، قال جل شانه: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ (سورة البقرة ٧١).

ظهرها سكنٌ للأحياء وبطنها نُزُلٌ للأموات، في جوفها ماء وحولها ماء ولا تميد، وبفضلها كف البحر أن يطغى على يابسها، وأمسك السماء أن تقع عليها، أرساها بجبال شامخات لئلا تضطرب وأحسن نصبها، ورفعها فأحسن هيئتها، وجعلها صلبة لا تضمحل مع تطاول الزمان، خشعت جبالها لخالقها، وتسجد له، وتهبط من خشيته، وأبت وأشفقت من حمل الأمانة.

وفيهما بحار تمخر الفلك فيها وتحمل الثقال، وما في بحارها مأكول حلال ولو كان ميتة قال تعالى ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ (سورة المائدة ٩٦).



د. إبراهيم بن خالد المخلف

وأنهارها حُلوةً عذبةً تنبع في موطن ويسوقها ربها إلى موطن آخر رزقاً للعباد، قطعها متجاورات تُسقى بماءٍ واحدٍ فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون ، والشكل ، والطعم ، والرائحة ، منها غذاء ، والآخِر دواء ، وفيها داء ، ونباتها بقدر موزون ، قهال ج. ل. ش. أنه: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (سورة الحجر ١٩).

قال ابن القيم - رحمه الله: «لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع، تعجز عقول البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها» □.

وطيورها وسباعها وبهائمها أممٌ شتى تبهر العقل من عجائبها وإتقان خلقها ، قال جل شأنه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (سورة الأنعام

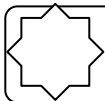
٣٨) ، مليئة بالخزائن والأرزاق: ﴿وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا

يَفْقَهُونَ﴾ (سورة المنافقون ٧) . قال النبي ﷺ: «وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض» □؛ قال أبو هريرة ؓ فذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتشلونها؛ أي: تستخرجونها. قال القرطبي رحمه الله «ملكتم أمته من الأرض ما لم تملكه أمّة من الأمم» □.

والله تكفل برزق جميع من عليها: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (سورة

هود ٦) ، وخزائنها تفتح بالطاعات: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (سورة الأعراف ٩٦) .

(١) إعلام الموقعين لابن القيم - مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة 1388هـ/1968م
(٢) متفق عليه صحيح البخاري مع الفتح كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهيد 248/3 - 249 حديث 1344 وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ 1795/4 حديث برقم 2296 .
(٣) الجامع للأحكام القرآن للقرطبي



حلالها كثير، وبركاتها وفيرة، واللبيب يستغني بحلالها عن حرامها، وبالقناعة عن إثمها، قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (سورة البقرة ١٦٨).

جمالها وما عليها من زينة للابتلاء والامتحان، قال عز وجل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الكهف ٧).

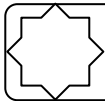
وفاضل سبحانه بين أرضه الواسعة فاختر منها أماكن جعل منها خير البقاع وأشرفها، فمن قصد بيت الله الحرام مخلصاً له العمل غفرت له ذنوبه، قال ﷺ: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» □. وليس على وجه الأرض بقعة يجوز الطواف بها سوى كعبة الله المشرفة، وليس فيها موضع يُشرع تقبيله واستلامه سوى الحجر الأسود والركن اليماني من الكعبة، ونهى التعلد في موضع يُشرك فيه مع الله.

نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة فسأل النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟». قائلوا لا، قال «هل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟». قائلوا لا، قال «أوفٍ بنذرِك» □. والأرض تشرف بما يقع عليها من أعمال صالحة. والله إذا أحب عبداً كتب له المحبة فيها، والعالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء بعد موتهم، وفي الإنسان عظمٌ لا تأكله الأرض فيه يُركب يوم القيامة، وصلاحتها بالطاعة وفسادها بالمعاصي، قال جل شأنه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (سورة الأعراف: ٥٦)

والأرض مُحكمة البناء لكن من عظم ذنب الشرك تكاد تنشق، قال عز وجل:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم 1350.

(٢) رواه أبو داود سنن أبي داود الصفحة أو الرقم 3313



د. إبراهيم بن خالد المخلف

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ (سورة مريم ٩٠ - ٩١).

والأرض لله نهى أن يمشى عليها ببطرٍ أو كبراً أو معصية ؛ قارون أعرض عن الله فخسيف به وباداره، «وإنما رجل يمشي قد أعجبت جمته - أي: شعره إلى منكبيه وأعجبه برداه إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة» (□).

وكل ما فيها من حركة أو سكون مكتوبٌ عند الله ، قال عز وجل: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا أَلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سورة الأنعام ٥٩).

وهو سبحانه لا يغيب عنه شيءٌ مما في كونه ، قال جل شأنه ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ

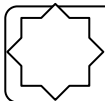
غَافِلِينَ ﴾ (سورة المؤمنون ١٧)، يقضي حوائج عباده بتفريج كربهم ، وإنزال النعم والهبات عليهم: ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (سورة الرحمن ٢٩).

وفي آخر الزمان تكثر الزلازل وتظهر خسوفات إيداناً بطي الأرض وزوالها، وتقوم الساعة على شرار الخلق، قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله» (□).

وإذا جاء أمر الله تنزلزل الأرض جميعها، وتحمل وترج رجاً وتذك دكة واحدة، وتلقي ما في بطنها من الأموات وتتخلى عنهم، وأول من تنشق عنه الأرض نبينا محمد ﷺ وتحدث يومئذ أخبارها، وتشهد على الناس بما عملوا على ظهرها من خير أو شر، ويطوي الله السماوات ثم يأخذهن بيده ثم يطوي الأرض بجمع، ثم يقول «أنا الملك أين الجبارون؟ أين

(١) رواه مسلم صحيح مسلم - كتاب اللباس والزينة باب تحريم التبخر في المشي 1653/3 حديث 2088.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب ذهاب الإيمان آخر الزمان 131/1 حديث 148.



الفطرة (معانيها ومكملاتها ومفسداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

المتكبرون؟». وتبدل الأرض ويُحشر الناس على أرضٍ غيرِ هذه ، قال النبي ﷺ :-
«يُحشرُ النَّاسَ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ - أي: شديدة البياض - كقرصة نقي
- أي: كالذقيق النقي - ، ليس فيها علم لأحد - أي: ليس عليها علامة سكنى أو بناء
أو أثر» (□).

ولله الأمر من قبل ومن بعد وإليه يُرجع الأمر كله؛ خلق فأتقن ما صنع ، وابتلى من خلق ،
والسعيُّ من نال مرضاته ، ووحَّد خالقه ، قال تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ
الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة لقمان ١١).

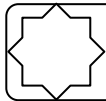
المبحث الثالث

مفسدات الفطرة

المطلب الأول اتباع الشيطان

فقد بدأت أول ممارسات الشيطان في الغواية والعداء لبني آدم حينما امتنع عن السجود
لأبي البشر آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ
أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَبْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۗ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

(١) متفق عليه صحيح البخاري مع الفتح كتاب الرقاق باب يقبض الله الأرض يوم القيامة 379/11 حديث 6521 -
ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة 2150/4 حديث 2790 .



د. إبراهيم بن خالد المخلف

شَكَرِيكَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ (سورة الأعراف ١١ - ١٨) .

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم تأثير الشيطان على فطرة بني آدم ودوره في إنحرافهم عن الحق وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَأُؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْرِزُ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ عَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ (سورة الإسراء ٦٢ - ٦٤) .

والمقصود بهذه الآيات أن الله تعالى ابتلى عباده بهذا العدو المبين فأجلب عليهم بخيله ورجله أي دعاهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله وشاركهم في أموالهم وأولادهم وهذا يشمل كل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم ومع هذا كله يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها بالأجر لأنه أضلهم حتى ظنوا أنهم على الحق (١) .

ومن الآيات قوله تعالى : ﴿ تَأْتِيهِمْ لِقَاءُ أُولَئِكَ فِي ظُلُمٍ لَمُتَّ عَالِمًا ﴾ ﴿١١٨﴾ وَأَلْزَمْنَاهُمْ لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأَوَّلَ عَمَلِهِمْ بِمَا جَاءُوا بِالْحَدِيثِ فِيهِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْزَمْنَاهُمْ لِقَاءَ رَبِّهِمْ وَأَوَّلَ عَمَلِهِمْ بِمَا جَاءُوا بِالْحَدِيثِ فِيهِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٢٠﴾ (سورة النساء ١١٨ - ١٢٠) .

(١) أنظر تفسير السعدي 120/3 - 121 .

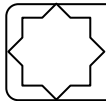
الفطرة (معانيها ومكملاتها ومفسداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

ففي هذه الآيات بين الله تعالى أن الشيطان لم يقتصر على مجرد الإضلال بل تجاوز حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال فزادهم شراً إلى شرهم حيث مناهم أن ينالوا ما يناله المهتدون وهذا هو الغرور بعينه عياداً بالله منه

وقد أشار النبي ﷺ في عدة أحاديث إلى تسليط الشيطان على الإنسان منذ ولادته واستمراره معه مدى الحياة قال ﷺ " ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وأبناها " [□] ، قال القرطبي " هذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط " [□] .

وقال ﷺ " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " [□] ومن أصرح الأحاديث في إفساد الشيطان للفطرة قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم " [□] وقد سلك الشيطان عدة مسالك في إفساد الفطرة ومن أبرزها الوسوسة والتشكيك ومن صور التشكيك التي سلكها [□] قوله ﷺ " لن يدع الشيطان أن يأتي أحدكم فيقول من خلق السموات والأرض ؟ فيقول الله فيقول فمن خلقك ؟ فيقول الله فيقول من خلق الله ؟ فإذا حس أحدكم بذلك فليقل آمنت بالله وبرسله " [□] .

-
- (¹) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله وأذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً 1265/3 ومسلم في صحيحه باب فضائل عيسى عليه السلام 1838/4 حديث رقم 2366 .
- (²) فتح الباري لابن حجر 541/6 .
- (³) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه كتاب الاعتكاف باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه 717/2 .
- (⁴) الراوي - المحدث ابن تيمية المصدر مجموع الفتاوى الصفحة أو الرقم 466/10 .
- (⁵) أنظر عالم الجن عبيدات 529 - 536 .
- (⁶) أخرجه ابن حبان بلفظه في صحيحه كتاب الإيمان باب التكليف ذكر الأمر للمرء بالإقرار لله جل وعلا بالوحدانية ولصفيه ﷺ بالرسالة عند وسوسة الشيطان إياه 362/1 .



د. إبراهيم بن خالد المخلف

وقد أوقع الشيطان بهذا الأسلوب كثيراً من الناس في الزندقة والإلحاد - عياداً بالله - ومن تشكيكه في اختصاص الله بالعبادة تزيينه للناس تلقي التحريم والتحليل من غير الله تعالى كما قال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿ اَتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (سورة التوبة 31).

ومن أشبع ما وقعت فيه البشرية قديماً وحديثاً من عبادة الشيطان التي حذر الله تعالى منها في الآيات السابقة عبادة طائفة من البشر لذات الشيطان عبادة وخضوع وتقديس وتذلل وهؤلاء هم الطائفة التي تسمى "عبدة الشيطان" (□).

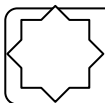
ومن صور الوسوسة والتشكيك في كثير من شؤون الإنسان الدينية والدينية فعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقرائتي يلبسها علي فقال رسول الله ﷺ ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه وأنفل عن يسارك ثلاثاً قال ففعلت ذلك فأذهب الله عني (□) وقال ﷺ إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فأتقوا وسواس الماء (□) وقال ﷺ ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله؟ قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير (□).

(1) أنظر حول هذه الطائفة عالم الجن عبيدات 550-565.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه كتاب السلام باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة 1728/4 حديث رقم 2203.

(3) أخرجه الترمذي في سننه بلفظه كتاب الطهارة باب ما جاء في كراهية الإسراف في الوضوء بالماء 84/1 وأحمد في مسنده الحديث رقم 21276.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً 2167/4-2168 حديث رقم 2814.

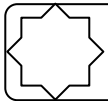


الفطرة (معانيها ومكملاتها ومفسداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

ولا أشك أن الشيطان هو أعظم الأسباب إفساداً للفطرة فكل شر وفسوق وكل بداية لفكرة ظالمة أو عقيدة منحرفة وكل بداية سير في طريق الشهوة خاسرة وتزيين للدينا واعتبارها غاية عالية كل هذا وغيره بسبب الشيطان وتزيينه وإضلاله ولأجل هذا أمرنا الله بالحيلة والحذر والاستعاذة منه ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة البقرة: 168) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة فصلت: 36).
المطلب الثاني: بيئة الكفر.

إن الله قد أخذ الميثاق على بني آدم ف العهد الأول إذ قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ (سورة الأعراف 172)، فأقروا عند ذلك بأن لهم رباً وصانعاً خلقهم، وإقرارهم بذلك فطرهم عليه بعد ذلك، فهم على تلك الفطرة السليمة التي فطرهم الله عليها، حتى طرأ عليهم من خارج ما ينسيهم ذلك العهد والميثاق، من تقليد الآباء واتباع عاداتهم التي خالفت الفطرة وأفسدتها، وبيئتهم التي نشأوا عليها، وهذا كما قال تعالى حكاية عن من كان هذا سبيله ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف ٢٢).

وكذلك لما قال إبراهيم - عليه السلام - لقوم م: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يُضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ (سورة الشعراء ٧٢-٧٣) عدلوا عن جوابه فقالتوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة الشعراء ٧٤) فأخبروا أن اتباعهم آباءهم وتقليدهم إياهم ومع تأثرهم بالبيئة التي نشأوا فيها، قادهم إلى عبادة الأوثان والكفر بالله، وإنكار الله عز



د. إبراهيم بن خالد المخلف

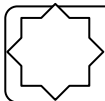
وجل وفطرته التي فطرهم عليها، فكان هذا تصديقاً لقوله - صلى الله عليه وسلم:
"فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه". (□).

قال ابن حجر في (الفتح) معلّقاً على هذا الحديث "فإنه عز وجل قد فطرهم على
الإنكار والمعرفة، وعلى الكفر والإيمان، فأخذ من ذرية آدم الميثاق حين خلقهم فقال ألسنت
بريكم؟ قالوا جميعاً بلى، فأما أهل السعادة فقالوا بلى على معرفة له طوعاً من قلوبهم، وأما
أهل الشقاء فقالوا بلى كرهاً لا طوعاً". (□).

قال الطبري عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ
كَافِرِينَ﴾ (سورة النمل ٤٣) المعنى فيه لم يصدها عن عبادة الله جهلها، وأنها لا تعقل، إنما
صدها عن عبادة الله عبادتها الشمس والقمر، وكان ذلك من دين قومها وآبائها، فاتبعت فيه
آثارهم" (□).

وذكر ابن الجوزي عن الزجاج: قوله "المعنى صدها عن الإيمان العادة التي كانت
عليها، لأنها نشأت ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس، وبين عبادتها بقوله "إنها كانت
من قوم كافرين"، وقرأ سعيد بن جبير، وابن أبي عمير: "إنها كانت بفتح الهمزة" (□).
قال الزحيلي "وصدها ما كانت تعبد من دون الله، إنها كانت من قوم كافرين أي
ومنعها عن عبادة الله وإظهار الإسلام ما كانت تعبد من غير الله وهو عبادة الشمس، فإنها
كانت من قوم وثنيين كانوا يعبدون الشمس فتأثرت بالبيئة التي نشأت فيها، ولم تكن قادرة

(¹) صحيح البخاري (114/06)، برقم (4775)، كتاب تفسير القرآن، باب (لا تبديل لخلق الله الروم 30) لدين الله
(²) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (248/3 - 249)، وتحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين
في العقبي والمآل لابن عطية (2/682).
(³) جامع البيان للطبري (19/471)..
(⁴) زاد المسير في علم التفسير (2/365).



الفطرة (معانيها ومكملاتها ومفسداتها) دراسة موضوعية في القرآن الكريم

على تغيير عقيدتها، حتى جاءت إلى بلاد سليمان الذي أحسن عرض الإسلام عليها، وأقنعها بصحته ووجوب الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته فهو ربّ الكون جميعه، وربّ الكواكب كلها، شمسها وقمرها ونجومها العديدة" (□).

فكلّمًا بقي الإنسان في بيئة الكفر والضلال ابتعد عن الفطرة الصّحيحة وقع في الضياع، وفسدت فطرته السليمة التي فطره الله عليها، وما صورة الإنسان في بعض المجتمعات الضالّة، وحالة الخواء الرّوحي التي تؤدي به إلى الضلال إلا صورة من الانفكاك عن مستلزمات هذه الفطرة ومقتضياتها

فالخضوع للعادات الموروثة، والتبعية للأباء والأجداد في ذلك، هي من مفسدات

الفطرة، ويشهد له قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ

﴿٧٠﴾ (سورة الصافات ٦٩ - ٧٠) وقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ

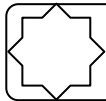
مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ (سورة الزخرف

ولا يفوتنا هنا أن نقول إن الإنسان إنما هو مجموعة مركبة الروح والجسد، والماديات والمعنويات، وليس أحدهما دون الآخر، وعليه فالنفس تهوى الشهوات المادية وتتوق أياماً إلى القيم العقلية، وقد ألهمت كلا من الفجور والتقوى وهي تستشعر كلا الميادين وتدرّك

الأميرين في ظل الظروف السوية والطبيعية، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ (سورة الشمس ٧ - ٨).

(¹) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للزحيلي (305/19).



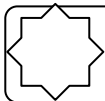
د. إبراهيم بن خالد المخلف

فالقرآن الكريم يصرح بأنّ للنفس الإنسانية موقفاً تجاه الخير والشرّ، والفجور والتّقوى، بمعنى أنّه إذا اقترف السيئة لام نفسه، وإذا اقترف الحسنة أحسّ بالرضا والسّرور، ومن البديهي أنّ هذه الحالة إنّما تكون في الإنسان الذي لم يتلوث قلبه بغير المعاصي والآثام إذ إنّ ثمة حقيقة تكمن في أعماق روح الإنسان تجعله يميّز بين الخير والشرّ⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (سورة الشمس ٨) ذلك أن التسوية للإنسان حاصلة من وقت تمام خلقه جنيناً في بطن أمه، ثم من أول أطوار الصّبأ؛ إذ التسوية تعديل الحلقة، وإيجاد القوى الجسدية والعقلية، ثم تزداد كيفية القوى فيحدث الإلهام

وقد نهى الله عن الشرك بما يدل على أن انحراف الفطرة من ضروب الشرك، والذي هو الكفر، وأن المبدلين لفطرة الله تعالى يشركون به، فيختلفون في معتقداتهم وسلوكهم باختلاف أهوائهم وشهواتهم، واختلاف نحل من يستدرجونهم للضلال والباطل، ويتفرقون فرقاً تشايح كل منها عقيدتها الزائغة وإمامها الذي أضلها، فهي فرق شر في مزاعمها الباطلة، ومذاهبها المنحرفة، كل حزب منها فرح بما لديه، يظن أنه على حق، والحق لا يتعدد، فإنه صراط الله المستقيم

وقد جاءت الأحاديث مبينة لهذا المعنى، عن أبي هريرة - رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة واقرأوا إن شئتم: ﴿ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ الْبَدِئُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الروم ٣٠).

(1) أسس التربية والتعليم في القرآن والحديث - الشيخ محمد رضا فرهاديان (ص 32).



إن الإنسان يولد على الفطرة الكاملة السليمة، التي لا تشوبها شائبة تكدر صفوها، أو تؤثر على جبلتها كما تولد البهيمة مجتمعة الأعضاء، سليمة الحواس، لا نقص فيها، وإنما يعرض للفطرة ما يعرض لها من تغير وتبديل وزيف وانحراف تحت تأثير العوامل التي تحيط بها من بيئة خاصة كبيئة المنزل، أو بيئة عامة من بيئات المجتمع، فالتعبير بالأبوين وأثرهما في التهويد والتنصير والتمجيس رمز للمؤثرات الخارجة على الفطرة شأنها شأن ما يعرض للبهيمة التي تولد كاملة الأعضاء، فيطراً عليها ما يطراً من نقص وفساد، ولم يذكر الإسلام في العوامل المؤثرة للدلالة على أنه دين الفطرة، وهذه الفطرة هي الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْتَطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ (سورة الأعراف ١٧٢ - ١٧٣) [١].

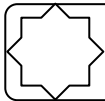
المطلب الثالث قراء السوء

الإنسان مخلوق اجتماعي، منفعل ببيئته، متأثر بها ومؤثر فيها، ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه يمكنه العيش في مجتمع فاسد أو بين أناس فاسدين من دون أن يتأثر بهم بنحو من التأثير، فعن أبي هريرة - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل. [٢].

وقد ورد في القرآن الكريم، مثلاً للرفيق السيء الذي يندم المرء يوم القيامة بسبب مصاحبته في الدنيا، واتخاذها صاحباً، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ

(١) الحاجة إلى الرسل لمناع القطن (176/7).

(٢) سنن أبي داود (259/4 ، برقم 4833) وسنن الترمذي (589/4 برقم 2378).



يَنَلِّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّيْ لِيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانَا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴿سورة الفرقان ٢٧ - 29﴾.

وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الانحراف الذي أصاب سلوك هذا الظالم، وفطرته السليمة، تأتي من مرافقته لخليل استطاع أن يضلّه بالرغم من معرفته بكلام الله - الذكر وبدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. (□)

فالقرين يمكنه التأثير في قرينه، خاصة إذا كان بمثابة القدوة، ويكون ذلك عن طريق الإغواء الفكري يتأثر الإنسان عموماً بأفكار من يرافقه، كما مر في الحديث السابق،

وللقرين، المقارب في العمر تأثير مضاعف، يقول تعالى: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أءِذَا مَنَّآ وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا ءِآءَآ لِمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ

﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ (سورة الصافات ٥١ - ٥٥) الإغواء الفكري،

بحسب ما يتضح من هذه الآية يتم عبر التوجه إلى العقول الضعيفة أو الجاهلة، بأدلة ظاهرها منطقي وواقعها مزيف، ومنها الإغواء النفسي والعاطفي وهو ثمة طريق آخر للإغواء وهو

الإغواء عبر التأثير في العواطف، لذلك يقول تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ

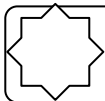
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا

خَاسِرِينَ ﴿سورة فصلت ٢٥﴾، ويتم ذلك بتعبير الآية عبر التزيين والتزيين تجميل

مصطنع، يعتمد على الإغواء النفسي والعاطفي بإظهار الأمور على غير حقيقتها، بطريقة تيل إليها النفس وتهواها (□).

(¹) النهي عن القدوة السيئة وبيان أضرارها، علي بن نايف الشحود (ص 32) نقل بتصريف

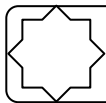
(²) النهي عن القدوة السيئة وبيان أضرارها، نقل بتصريف (ص 33).



فقرناء السوء هي من أشد مفسدات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقريّن السوء بمجالسته ومخالطته يسبب في انحراف الفطرة السليمة، حيث يزين الباطل، ويصدّ عن طريق الحق، ويفسد الطاعة، ويجعل قرينه بعيداً عن الحق وأهله، ويرشده إلى طريق الخسارة في الدنيا والآخرة، فالمجالسة تؤثر في الإنسان تأثيراً كبيراً، والقريّن بالمقارن يقتدى - كما هو معروف والمرء على دين خليله، فالإنسان يتأثر بمجلساءه سواء أكانوا من الإنس أم كانوا حتى من شياطين الجن، فإن الإنسان إذا كان يتعاطى الأمور الرديئة، ويقلل ذكر الله تعالى، ويكثر الوقوع في المعاصي ومجالسة الأشرار، والحضور في أماكن الذنوب والمواقع التي تكثر فيها الشياطين؛ فإن هذا يورث قلبه ضعفاً، ويورث الشياطين جراءة عليه، وبهذا ينحرف عن فطرته السليمة التي فطره الله عليها

قال الطبري "وبعثنا لهم نظراء من الشياطين، فجعلناهم لهم قرناء قرناهم بهم يزينون لهم قبائح أعمالهم، فزينوا لهم ذلك"، وقد نقل الماوردي أقوال المفسرين في معنى هذه الآية، أحدها ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة، قاله السدي ومجاهد، الثاني ما بين أيديهم من أمر الآخرة، فقالوا لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب، وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا لهم اللذات، قاله الكلبي الثالث ما بين أيديهم هو فعل الفساد في زمانهم وما خلفهم هو ما كان قبلهم، حكاه ابن عيسى، الرابع ما بين أيديهم ما فعلوه، وما خلفهم ما عزموا أن يفعلوه، ويحتمل خامساً ما بين أيديهم من مستقبل الطاعات أن لا يفعلوها وما خلفهم من سالف المعاصي أن لا يتوبوا منها. [١] وذكر القرطبي قول النقاش "أي هيأنا لهم شياطين، وقيل سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصي، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضاً، أي سببنا لهم قرناء، يقال قيس الله فلاناً لفلان أي جاء به وأتاحه له، ومنه قوله تعالى "وقيسنا لهم قرناء"، وقيل المعنى أحوجناهم إلى

(١) النكت والعيون للماوردي (178/5).



د. إبراهيم بن خالد المخلف

الأقران، أي أحوجنا الفقير إلى الغني لينال منه، والغني إلى الفقير ليستعين به فزَيْن بعضهم لبعض المعاصي. (□)

الخاتمة

وأحمد الله على عونه وتوفيقه على تمام هذا البحث أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع به ويشينني عليه إنه ولي ذلك والقادر، والحمد لله على التمام والصلاة والسلام على خير الأنام وبعد

أدلف إلى بيان بعض النتائج التي توصلت إليها وتوصياتي التي أتقدم بها بين يدي

القارئ الكريم

أولاً النتائج

- الفطرة هي العهد القديم بين الله وبين كل الأدميين، وهي مركوزة في نفوسهم أزلاً
- الاهتداء بهدي الأنبياء والمرسلين من أهم موقظات الفطرة ومنشطاتها على الطريق
القيوم.

- اتباع الهوى والشيطان يورث فساد الفطرة عن المسلم.

- الركون إلى الكافرين والانسجام مع مبادئهم يقود إلى انحراف الفطرة.

- اختيار البيئة المسلمة والوسط المعافى من الأصدقاء والأقران يساعد على استقامة
الفطرة.

ثانياً التوصيات

من أهم ما أوصي به في هذه الدراسة

- 1/ تقوية الصلة بيننا وبين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تعلماً وتعليماً
- 2/ إدامة الفكر والنظر إلى مخلوقات الله الدالة على عظمته تقوي إيماننا بالله رب العالمين

(¹) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (355/15).

